الشيخ محمد مصطفى المراغى

لمناسبة ذكراه الخامسة

للاستاذ عبد الجواد سليمان

فى ليلة الرابع عشر من شهر رمضان المكرم منذ خمس سنوات مضت فاضت إلى بارئها روح المرحوم الأستاذ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر الشريف وشيخ الإسلام حينئذ فكان لوفاته أثر بالغ فى نفوس محبي الإصلاح فى أنحاء الأقطار الاسلامية لما كانوا يؤملونه على يديه من إصلاح دينى يتوج به ذلك الصرح الشامخ الذى شاد أسسه جمال الدين الأفغانى وأعلى بناءه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

ولد المرحوم (محمد مصطفى المراغى) فى قرية المراغة من أعمال مديرية جرجا ، وبفضل هذا الشيخ الجليل ومساعى أبنائه الموفقة من بعده ارتقت هذه القرية فأصبحت مركزا من مراكز مديرية جرجا تتبعه بعض البلاد الأخرى المجاورة ؛ وأصبحت بها كذلك مدرسة ابتدائية تقوم على تهذيب النشء ونشر الثقافة بين أبناء البلاد .

نشأ الشيخ المراغى فى بيئة علمية ؛ فلقد كان أبوه ممن يلمون ببعض العلوم الدينية مما جعله موضع احترام أهل المراغة ومرجعهم فى المسائل الدينية ، فعمل هذا الأب على أن ينشىء أولاده نشأة علمية حتى يؤدى مالهم قبله من حقوق ، وحتى يكونوا بالتعليم مثله محترمين فى أعين الناس .

وقد كان أكبر أبنائه السبعة الأستاذ محمد الذى نحن بصدد الكلام فى ترجمته ، وقد تربى خمسة منهم فى الأزهر جنح أحدهم إلى دار العلوم ، وكان الابن الكبير متوقد الذكاء مثابرا على درسه ، وظل مثابرا عليها حتى نال شهادة العالمية بتفوق رشحه للتدريس فى الأزهر ؛ ثم عمل بعد ذلك قاضيا فى مديرية دنقلة بالسودان فمفتشا بديوان الأوقاف ، ثم عين قاضيا لقضاة السودان بمسعى أستاذه المرحوم الشيخ (محمد عبده) ثم رئيسا للتفتيش بالمحاكم الشرعية فرئيسا لمحكمة مصر الكلية ، ثم عضوا فى المحكمة العليا الشرعية ، فرئيسا لها سنة ١٩٢٣ ثم شيخا للازهر بعد ذلك من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٠ ثم انقطع عن المشيخة مدة عاد بعدها إليها سنة ١٩٣٤ وبقى بها حتى لحق بالرفيق الأعلى .

لقد كان الشيخ المراغى من تلاميذ الإمام بل أكبر تلاميذه الذين أشربوا روحه فى الإصلاح والتجديد ، وقد أظهر فى كل هذه الوظائف التى تولاها مقدرة بالغة ، وكفاءة ممتازة وإدارة حازمة ومنقطعة النظير بين الشيوخ ، شهد له بها رجال العصر من العلماء الوطنيين والأجانب . وقد أجمل وصفه الأستاذ العلامة الفيلسوف (أحمد لطفى السيد باشا) فقال يوم تشييعه إلى مقره الأخير : « كان رحمه الله منسجما فى كل شىء ، عقله يوازى علمه ، حتى جسمه وهندامه » .

وأظهر ما تذكر به الشيخ (المراغى) تلك الصفات التى تفرد بها بين الشيوخ الذين تقلدوا قبله مشيخة الأزهر ؛ أو بالأجرى مشيخة الإسلام، وأول هذه الأوصاف التى حفظها له تاريخ الأزهر، أن مشيخة الأزهر كانت قبله من الوظائف الروحية التقليدية البعيدة عما يجرى فى الحياة من تيارات عصرية ، فخرج بها الشيخ المراغى من عزلتها ، وألقى بها فى غمار الحياة فأشعر الناس فى الشرق والغرب بأن المنصب له خطره ، ونبه إليها الأذهان فى العالم الإسلامى ، وبذلك ضرب بنفسه المثل الصحيح لرجل الدين ، فى أنه لم يخلق فقط للعبادة والعيش على هامش الحياة ، بل لا بد من أن يختلط بالناس فيفيد ويستفيد ، وأن يكون له رأى يعتد به فى الحياة العامة ، يشارك به المفكرين من أبناء عصره ويساهم به فى بناء المجتمع الانسانى ، ويساعد فى رسم الخطوط التى تسير عليها البلاد ؛ لذلك رأينا الأستاذ المراغى يعمل على إعادة تنظيم الأزهر على نحو واسع النطاق حتى يتفق وحاجات العصر الحاضر فى مصر وفعلا قد صدرت خطة الإصلاح التى وضعها فى القانون المعروف بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ ، وقد لاقى — رحمه الله — الشىء الكثير من معارضة الإصلاحات التى كان يبغيها فاستقال من المشيخة

وقد كان الأستاذ المراغى من أسس إصلاحه أن تنظم مناهج الأزهر وتطعم بالعلوم الحديثة لتكون على مثال مناهج المدارس المدنية ، وأن تصلح كتب الأزهر ، وتشذب مما حشيت به من

الخلافات اللفظية التي لا جدوى من دراستها حتى يخفف العبء على الطلبة ، وحتى تساير هذه الكتب نظريات التربية الحديثة فيتسنى لقارئيها أن يشاركوا في بناء نهضة بلادهم ، وأن يفهموا الحياة على حقيقتها ، وأنها ليست بحسب تلك المتون والحواشي والتقارير خطت على الصفحات الصفر ؛ بل هي عالم واسع المدى بعيد الحدود .

ومن أوصاف الشيخ المراغي فوق جدارته بالزعامة الدينية أنه كان رجلا (دبلوماسيا) يلبس لكل حال لبوسها ، وينتهز الفرص السانحة التي يتمكن فيها من النهوض بالأزهر والكسب له ، وبذلك تقدم الأزهر في عصره تقدما محسوسا . ولعل في إيفاده البعوث الأزهرية إلى جامعات أوربا أصدق دليل على عزمه الصادق في خدمة الأزهر ليجمع في ثقافته بين القديم والجديد ، وليكون العالم في الدين عالما بعلوم الدنيا ، والثقافات المعاصرة ، فتكتمل له العدة في الحياة .

وفي المراغي صفتان أخريان لعل القدر الذي هيأه لقبول تعاليم أستاذه الشيخ محمد عبده هو الذي منحه إياهما ليكون الوارث الحق لصفات أستاذه ؛ أما الأولى فجرأته البالغة الحد في الاصلاح ، وجهره بآرائه متى اقتنع بوجاهتها ، وعدم مبالاته بما يعترض سبيله من مقاومات ومعارضات من الجامدين المحافظين .

وأما الثانية فهي اعتزازه بنفسه ، واعتداده بكرامته كرجل من رجال الدين اعتدادا هون عليه مرة منصبه الخطير فتخلى عنه ثمنا للكرامة .

بهذه الكفاية الممتازة أمكن للشيخ المراغي أن يخلق من أبناء الأزهر جيلا جديدا غير ما تقدم عصره من أجيال أزهرية ، جيلا أقل ما يقال فيه أنه بدأ يفهم تبعات الحياة التي يسأل عنها أمام الرأي العام رجل الدين ، وبهذا الاخلاص للازهر استطاع الشيخ المراغي أن يكون له مدرسة من أبناء الأزهر ، يدين تلاميذها بكثير من تعاليمه ، وإليهم يعزى فضل كبير في تقديم الأزهر ، ومحاولته التطور والارتقاء ، ورغبته في المساهمة في مجد مصر الثقافي .

ومما هو جدير بالذكر في هذه المناسبة أن ننوه بما لقيه الشيخ المراغي من عطف المليك فقد شجعه ذلك على بث تعاليم الدين الصحيحة ، ويتجلى ذلك العطف في دروس الشيخ الدينية التي رغب جلالة المليك في سماعها والتي ألقاها بين يدي جلالته ، وهو تشريف جديد لم يحظ به شيخ قبل الشيخ المراغي .

لقد كان الشيخ المراغي كغيره من الزعماء المصلحين ، له أنصار ومريدون يمدحونه ويصوبون خططه في الإصلاح ، وينادون بمبادئه ويعملون على إذاعة فضله ؛ وله إلى جانب هؤلاء حزب معارض مناوىء ، لا يرونه رأيه في الاصلاح .

ومهما قيل في هؤلاء وهؤلاء فإن المناوئين للشيخ المراغي يشهدون في قرارة أنفسهم له بالنضوج الفكري والحنكة عند مواجهة الخطوب ، ويقدرونه في قلوبهم وإن عجزت ألسنتهم عن إعلان هذه الشهادة . والآن قد أصبح المراغي في ذمة التاريخ ، والتاريخ وحده هو الذي سينصفه ويظهر فضله ويبين عن شخصيته التي تمتع بها ، ويبين مقدار قوة ذلك الاشعاع الذي كان ينبعث من نفسه ، فيحيي الأمل عند بعض الناس في بلوغ الإصلاح وتحقيق ما كان يتمناه المخلصون منهم للاسلام والمسلمين .

ولكن الوفاء للعاملين واجب ، فلو أنصف الأزهر شيخه لخلد ذكراه في مؤسسة نافعة تحمل اسمه . ولو عرف الأزهريون فضل شيخهم عليهم وعلى أزهرهم لاكتتبوا في مشروع نافع ينفق ثمرته على جهة خيرية تمجيدا للشيخ وتخليدا لذكراه . رحم الله الشيخ المراغي فلقد كان وفيا للناس ، وقد كان من وفائه رغبته الصادقة في أن يخلد ذكرى أستاذه الشيخ محمد عبده فلقد جاء عنه في كتاب (الاسلام والتجديد في مصر) للدكتور تشارلز أدمز Charles adams ما نصه (وكانت الصحف في سنة ١٩٢٩ أي أثناء مشيخته للازهر تكتب كثيرا عن أمر كان له حسن القبول هو تخليد ذكرى الإمام ، إما بالاحتفاظ بمنزله في عين شمس ، وإما بالقيام بأي عمل آخر من الأعمال التي تدل على التقدير القومي ، وكان من المتفق عليه بشكل عام أن أليق الناس للنهوض بهذا هو الشيخ المراغي إذ هو شيخ الأزهر ، وله بالشيخ عبده صلات قوية قديمة .

رحم الله الشيخ المراغي رحمة واسعة وأنزله منازل الأبرار . .

عبد الجواد سلطان
المدرس بمعلمات سوهاج